

التنمية في الجزائر في ظل أزمة الهوية.

Development in Algeria valuable lost its identity crisis

د. لونيس زهير

أستاذ علم النفس، جامعة حسينة بن بوعلى -شلف-

الملخص:

إن مسألة التنمية ترتبط بشكل أساسي بالعنصر البشري قبل التحدث عن الوسائل و الإمكانيات و الإنسان لا يستطيع التفكير في التنمية دون تحقيق الاستقرار النفسي و الاجتماعي و هذه النقطة التي حاولنا توضيحها في هذه المداخلة. كما أنه لا يمكن الوصول إلى الاستقرار النفسي في ظل مجتمع يعاني من اضطرابات على مستوى نسقه الثقافي فأزمة الهوية مثلا، أكبر معوقات التنمية، سببها أزمة النسق الثقافي فلا يمكن التحدث عن أي مشروع تنموي إلا بعد معالجة المرض الثقافي للمجتمع.

Abstract

The question of the development relates in basic configuration in the human element before the speaking about the methods and the possibilities. The human can't think in the development without investigation of the mental and social stability that is the question that we want to discuss in this intervention. As that it's not possible the arrival to the mental stability in light of society suffers disturbances on level coordinated him cultural so crisis of the identity is equal, bigger blocking of the development, caused her crisis of the cultural order so the speaking about any developmental project do not be possible except after the treated cultural illness of the society.

أولاً: مقدمة

يشير الباحث الجزائري نور الدين طوالي في كتابه: "إشكالية المقدس" إلى أن الفرد الجزائري يعيش معاشاً ثقافياً عنيفاً خلق حالة من التشويش النفسي-الثقافي، ناتجاً عن استثماره في نفس الوقت لنوعين من القيم المتعارضة مما يجعله منبعاً للتوتر المتواصل، وهذا بسبب الصراع بين الحاجة إلى التمسك بالثقافة الأصلية و في نفس الوقت اعتناق قيم الحداثة من أجل الحفاظ على البقاء و الاستمرارية مما يجعل الأفراد يعيشون ثقافتهم بشكل تقاطبي مع صراع داخلي مستمر و حسب نظرية الأنساق فإن اضطراب النسق السوسيو ثقافي له وقع مباشر على كافة المؤسسات الاجتماعية ويعتبر بذلك أكبر معوق نفسي للتنمية.

لا شك ان اضطراب النسق السوسيو ثقافي للمجتمع الجزائري له عواقب سلبية على كافة مؤسسات المجتمع و التي تهمنا اكثر هي وحدة بناء المجتمع أي الأسرة و بشكل أدق هو الأب أو المؤسسة الأبوية، من بين مخلفات اضطراب النسق السوسيو ثقافي هو ظهور أزمة على مستوى المعاني الخيالية الاجتماعية بسبب تواجد نسقين ثقافيين غير متجانسين (التقليدي و الحديث) هذه الأزمة أدت الى ظهور أزمة على مستوى عمليات التماهي Identification لدى الأب¹ جعلته غير قادر على بناء هوية أبوية متناسقة تحفظ وظيفته داخل الأسرة. ان أزمة الأب الجزائري، مؤسس القانون و النظام الاجتماعي، لها وقع على مستوى عملية إستدخال قانون الأب لدى الطفل في المرحلة الأوديبيية oedipienne و يؤدي ذلك الى تشكيل أنا أعلى ضعيف غير قادر على التحكم في النزوات المدمرة لدى الطفل من جهة و إلى ادراك قانون الأب على أنه خارج عنه أي انه مهدد ينبغي الدفاع ضده. تفرز هذه الوضعية ما يسمى بالعنف الاجتماعي يظهر هذا العنف على شكل العدوانية غير الصحية التي نلاحظها عند الطفل في المدرسة و باقي المؤسسات، عدوانية يوجهها ضد زملائه و ضد كل من يرمز الى السلطة : المدير، المعلم(ة)، الحارس، القانون الداخلي للمؤسسة، البرامج الدراسية ... لينتهي في الأخير عند محطة الرسوب الدراسي.

من جهة أخرى أدت عملية التثاقف التي يخضع لها المجتمع الجزائري الى إفقاده لقداسته ثقافته الأصلية و في مرحلة ثانية جعلت قيم المجتمع عبارة عن خليط من النماذج و الرموز المتناقضة و التي تولد حالة

من الصراع الداخلي لدى الفرد يعيشه على شكل القلق الدائم و الاكتئاب كما تؤدي الى أزمة هوية عميقة تجعل الفرد غير قادر على التعرف على نفسه وعلى محيطه ولعل هذا ما يفسر تنامي و انتشار الظواهر ضد الاجتماعية anti sociales المعيقة لحركة التنمية.

فهل يمكن التحدث عن مشروع تنموي دون الأخذ بعين الاعتبار ظاهرة أزمة الهوية التي أفرزها إضطراب النسق السوسيوثقافي ؟

1 أهداف الدراسة: يهدف هذا العمل البحثي الى:

- تسليط الضوء على مسألة أزمة الهوية في المجتمع الجزائري.
- عرض المقاربة التحليلية للتغيرات الاجتماعية و ما تفرزه من ظواهر نفسية.
- محاولة الربط بين أزمة الهوية كعائق نفسي-اجتماعي و تعثر عجلة التنمية في الجزائر.

2 أهمية الدراسة:

- يتعرض هذا العمل البحثي لأحد أهم العوامل التي يمكنها ان تفقد الفرد توازنه النفسي و الاجتماعي و منه قدرته على العطاء و التنمية.
- التشخيص الدقيق لإضطرابات ثقافة المجتمع الجزائري و هو يعيش التحولات و التحديات الثقافية سيمكننا من رسم صورة واضحة عن وقع هذه الإضطرابات على مستوى الأفراد.
- تحسيس المؤسسات المسؤولة عن عملية التنمية في الجزائر بأهمية موضوع الهوية و أزمة الهوية سيدفعها الى التفكير في استراتيجيات تمكن من تجاوز المعوقات النفسية التي تفرزها الأزمة.

ثانيا: أزمة الهوية بين الثقافتين و التغيير العنيف للمجتمع الجزائري

من أهم العوامل التي كانت وراء أزمة الهوية التغيرات الاجتماعية السريعة بل و المتسارعة التي أدت إلى عدم مقدرة الأفراد على التكيف معها وإن استطاعوا فبصعوبة كبيرة، أصبح الفرد أمام وضع صعب لا يستطيع أن يجد رابطا بين تماهياته للنماذج التقليدية و الواقع الاجتماعي الذي يعرف تغيرات مستمرة. هذا ما جعل من الصعب تكيف طريقة تفكيره، تصرفه، تواصله مع الواقع الجديد الذي لا يثبت على حال، في تغير مستمر بوتيرة لم يعتاد عليها الفرد الجزائري وتيرة دخلت فيها المجتمعات المصنعة لمواجهة التنافس الاقتصادي الشديد.

إن المجتمع الجزائري يتعرض إلى عملية ثقافتين Acculturation ولعل ما سهل هذه العملية وسرع فيها، الوتيرة المتسارعة التي تتحرك بها المجتمعات مما جعلتها تدخل في حالة إرباك شديدة يصعب عليها استعمال ميكانيزمات المواجهة بل وحتى التفكير فيها. ذلك " لأن حالة الثقافتين تحدث اضطراب شديد على مستوى التشكيلة العقلية للماضي و تجعل عملية البحث عن التوازن بين القديم و الجديد، بين الأصل و الحديث صعبة الى مستحيلة. هذه الوضعية تدفع الفرد الى الدخول في حلقة مفرغة أين يتلمس بشكل سطحي الماضي و الحاضر و المستقبل.² يعبر مصطفى لشرف عن هذه الحالة قائلا: " ان الفرد الجزائري وجد نفسه رهينة لوضعية تدفعه بشكل لا متناهي الى التنقل بين استحالة العودة إلى الماضي و استحالة التكيف مع الوقت الحاضر المتقدم"³

إن المجتمع الجزائري تعرض أبان الاستعمار و لا يزال يتعرض اليوم إلى عملية ثقافية شديدة تسببت في المرض الذي يتخبط فيه اليوم. و من اجل فهم طبيعة هذا المرض و تشخيصه يجب علينا ان نفهم ان أول ما تفعله عملية الثقافتين في المجتمعات هو أبطال قداسة الثقافة الأصلية و ذلك عن طريق إغراق النسق الثقافي بكم كبير من النماذج الغريبة عن المجتمع و جعلها تمثل مثلا عليا جذابة و ذلك على حساب النماذج الأصلية . الذي سيحدث هنا هو ان الثقافة الأصلية ستفقد من حيويتها و قدرتها على المقاومة ثم قداستها التي تجلب اليها الإمتثال و الإحترام. و في مرحلة ثانية تصبح قيم المجتمع عبارة عن خليط من النماذج و الرموز المتناقضة و التي تولد حالة من الصراع الداخلي لدى الفرد يعيشه على شكل قلق دائم.

1 آثار عملية التثاقف:

إلى أي مدى تؤثر عملية التثاقف على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي في العائلة والفئات العمرية المختلفة وجماعات العمل وحتى على مستوى المجتمع الكلي ؟ يتم لنا ذلك من خلال تحديد كل الجوانب التي يمسها التثاقف وكذا تحديد السرعة والشدة التي تظهر بها مختلف مظاهر التغير الثقافي والاجتماعي لديهم سواء كان ذلك على المستوى المادي أو العقلي أو الاجتماعي، فمن خلال تركيزنا الناقد على مختلف الآراء حول الآثار البناءة والهدامة للتثاقف نستطيع تكوين رؤية كاملة وصحيحة حول هذه الظاهرة وآثارها:

أولا على المستوى الفردي:

للتثاقف آثار عديدة على المستوى الفردي ، فهو يلعب دور البناء للهوية الفردية والمهدد لتوازنها في نفس الوقت من خلال مجموع الصراعات التي تصاحب حدوثه.

ان التناقض الحاصل بين معايير وقيم الثقافتين المحلية والأجنبية يخلق صراعا حادا داخل شخصية الفرد يجعله في حالة دائمة من الارتباك والشك في تحديد خياراته الاجتماعية و الثقافية⁴، كما ان غياب نظام رمزي مشترك بين الأفراد سيدخلهم في حالة صراع من نوع اخر و هو صراع بين- شخصي يزيد من حدة التوتر والارتباك الحاصل لديه ويدفعه حسب مدارس إلى البحث عن متنفسات لتفريغ هذا التوتر والحصر المهدد لاستقراره وتوازنه النفسي والداخلي، فاندثار معايير الجماعات يؤدي إلى ضياع تلك القوة التي تساعد الأفراد في الارتباط والتعايش الاجتماعي مع ثقافتهم الأم وإلى ظهور السلوكات المنحرفة: كالإدمان على المحذرات والكحول وظهور الأعصبة واضطراب العلاقات الزوجية والعائلية.

ثانيا على المستوى الجماعي:

على العموم يؤدي التثاقف على المستوى الاجتماعي إلى:

- ظهور قيم ومعايير جديد كعملية تعويضية للمعايير السابقة أو كمزيج معها، مما يؤدي إلى حدوث تغيرات على مستوى التنظيم الاجتماعي والثقافي للمجتمع ينتج عنها ظهور حاجات جديدة لا يمكن إشباعها بمعايير الثقافة المحلية الشئ الذي يزيد من نسبة الانحرافات في المجتمع كالسرقة والانحراف والحرقة... مع انتشار واسع لاغتراب اجتماعي عام في المجتمع مع ما يصاحب ذلك من اضطرابات على المستوى الفردي والاجتماعي ، بالإضافة إلى ميكانيزم الانطواء كعملية دفاعية

تؤدي إلى اغتراب يمكن اعتباره منبعاً للتوتر والضغط مما قد يؤدي إلى زيادة في العنف والعدوانية لدى الأفراد⁵.

في ظل عملية التغير والتحول ممزوجة بعملية التثاقف والتي تعني تمثل فريق بشري، كليا أو جزئيا للقيم الثقافية لفريق بشري آخر، والتي بلغت مرحلة أبطال قداسة الثقافة الأصيلة. نلاحظ أن القيم الاجتماعية الأصيلة التقليدية فقدت من قيمتها وقوتها وتأثيرها.

• كيف سيتمكن الفرد الجزائري أن يشارك في عملية التنمية في ظل مجتمع أفقده الشعور بالوحدة و التماسك الداخلي بسبب التحولات الثقافية التي يمر بها ؟

2 . التناقض الهوياتي في الجزائر :

إن أول من طرح مشكلة الهوية من زاوية التعارض والتناقض هو ج.بارك⁶ J.Berque وذلك في المجتمعات التي تعيش تحولات. حيث سلب الضوء على علاقة الصراع المتولد بين البنيات التقليدية الثابتة والتي تعطي طابع أسطوري للهوية والتحولات التدريجية المستمرة لهذه البنيات تحت تأثير العوامل الخارجية.

و بخصوص الثقافة العربية يذهب ج.بارك إلى أن التناقض في هذه الثقافة هو نتاج العلاقة الخاصة بين الثقافة العربية المنغرس في ماضيها و المتمسكة بأصالتها والحضارة الغربية. هذا الوضع خلق حالة تشوش نفسي- ثقافي جعل الهوية تتأرجح بين وضعيتين متضادتين: بين الأصالة والحدثة، بين المقدس والمدنس...

إن الجزائر ،أكثر من البلدان العربية الإسلامية، تعرف بميزتها الثقافية الخاصة بها والتي تتمثل في تجميع لم يسبق له مثيل، نوع من الخليط الثقافي أين نجد فيه نماذج ورموز ثقافية متعكسة. إن التناقض الثقافي يعبر على التكاثر والتنوع وأكثر من ذلك، على التباين الذي يميز القيم الثقافية الذي يجعل من المستحيل بناء نموذج من التنظيم الاجتماعي المتجانس. كل قيمة من القيم الثقافية تؤثر بشكل مزاحم منافس للقيم الأخرى لا بشكل مقارب لها. و لهذا فإن الفرد الجزائري يعيش ثقافته على شكل متناقض منقسم بين رغبته في الإرتقاء الى المستوى العالمي (الحدثة) و قلقه من التخلي عن أصالته (التقليدي)⁷.

إن هذا الخليط الثقافي. من رموز وتصرفات وقيم متناقضة والذي يحمل في طياته التوجه الأصيل والتوجه الحديث معا يعيشه الفرد الجزائري على نمط الانقسام والتقطيع Morcellement. ذلك كون الفرد لا يستطيع أن يتعامل مع هذين الطبقتين الثقافيتين معا وكل على حدى إنما سيتعامل معهما ممزوجين في طبق واحد

رغم تناقضهما وعدم تجانسهما. هته الحالة ستولد طبعا بلا شك حالة صراع داخلي عند الفرد بين جبهتين خارجيتين داخليتين. لكن الأخطر من هذا، هو أن هذا الصراع غير المحتمل سيدفع بالفرد إلى الانقسام ودخوله عالم الأمراض النفسية. يقول في ذلك **د. توالي** ⁸ N.Toualbi في كتابه " الهوية في المغرب العربي ": عدد كبير من الأفراد يجدون أنفسهم غير قادرين على مواجهة حالة التضاد الداخلي للقيم، لأن هته الحالة تسبب لهم الانقسام والتشتت على مستوى نسق التمثلات الثقافية. يجدون أنفسهم لا يملكون سند هوياتي يسمح لهم بتحديد موقعهم والتعرف على محيطهم ويلجؤون لحل لمشكلتهم إلى عالم فقد التعويض *Décompensation* .

" إن استدخال الفرد لقيم غريبة عن قيمه الثقافية يخلق لديه الشعور بتأنيب الضمير و الذي يصاحبه الشعور بالقلق. يسمى هذا النوع من القلق بالقلق الثقافي و هو يظهر عندما يجد الفرد نفسه في وضعية يختار فيها بين قيمتين متناقضتين ميله لإحداهما يولد لديه الشعور بتأنيب الضمير " ⁹ و من أجل تجاوز القلق قام الفرد الجزائري بعملية فصل القيمة الأداتية *Instrumentale* من الموضوع المستوعب ومن دلالاته الهويةية. تلك القيمة الأداتية ستغيب من نسق التمثلات الثقافية للفرد بالشكل الذي يجعل هذا الأخير لا يرى في الموضوع إلا جانبه الخدماتي خال من أي خلفية إيديولوجية. بهذا الشكل يستطيع الفرد استعمال هذا الموضوع كما يريد دون أن يشعر بأي إحساس بالذنب وبدون أن يحدث له هذا الاستعمال أي خلل في ثقافته الأصلية. من هذا المنظور تصبح الحداثة إذن بالنسبة للفرد الجزائري محدودة فقط في دلالتها الاجتماعية الأداتية. و في هذا السياق يذكر توالي N. Toualbi : " إن الحداثة فعلا تسوق إلينا كفايات الحياة الطيبة والترف، لكنها لا تخلق المعنى الوجودي الذي تحتاج إليه الهوية لتتغذى وتنتعش " ¹⁰ الفرد الجزائري يمارس تارة سلوكات غريبة عنه على حساب طريقة عيشه الأصلية ، كل هذه السلوكات الاجتماعية المستوردة يمارسها دون خلفية ثقافية، دون مرجعية يستمدّها من هويته و بهذا أصبح شيئا فشيئا يفرغ هويته من محتواها.

من جهة أخرى، يمكن القول أن التناقض الموجود على مستوى النسق الثقافي واضطراب المرجعية التي كان يستند عليها الفرد- الذي وجد نفسه أمام ثقافة تقليدية أصيلة وثقافة غريبة غريبة عنه - هو راجع إلى تعارض ثقافة تمجد الفرد وحرية في تكوين نفسه بنفسه وثقافة تمجد الجماعة ودورها في بناء الفرد.

ثالثا: التغيرات الاجتماعية من منظور التحليل النفسي

من أجل فهم بناء الهوية و تأزمها لا ينبغي الاكتفاء بملاحظات وتحليلات سطحية. لا ينبغي الوقوف فقط عند نقطة تأثير المجتمع على الفرد، إنما ينبغي الغوص إلى أعماق من هذا من أجل فهم تفاعل الجهاز النفسي الداخلي مع الأزمات والاضطرابات التي تمس الغشاء الثقافي الاجتماعي للمجتمع والتي تنعكس

على الفرد مباشرة. " إن الأزمات التي يمر عليها ويعيشها الفرد خلال حياته والتي تتمثل في أزمات النمو، أزمة المراهقة، أزمة المحيط الاجتماعي، أزمة الدخول في مرحلة الشيخوخة. تتنوع حسب المجتمعات والأزمنة والطبقات الاجتماعية، لكنها تتميز بميزة مشتركة وهي كونها لا يستطيع الفرد تجاوزها إلا في إطار العلاقة التي تربط المستويات الثلاثة: النفسي - الداخلي، الجماعي، الاجتماعي.

إذ لا يمكن فصل مستوى عن مستوى، أو فهم أي مستوى على حدى¹¹.

إن العلاقة الموجودة بين العنصر والمجموعة بين الجزء والكل هي علاقة مصيرية في حالة الأزمات وما يمكننا من فهم ذلك هو العقد النرجسي Contrat Narcissique الذي تحدثت عنه أولانيي (1975) Costoriadis Aulagner pierre حيث تعرف علاقة الفرد بالجماعة الاجتماعية على أنها رابط يضمن لكل فرد مكانة في المجموعة هذا الرابط يحفظ للفرد استمرار يته، كماله وقوته المطلقة La super puissance .

ماذا عن العقد النرجسي الذي يربط الجزائري بمجتمعه ؟ هل يمكن التحدث عن أزمة على مستوى العقد النرجسي ؟

إن الثقافات التي حافظت على نظام خرافات حي هي ثقافات تتوفر على مصادر من الصور التي يحتاجها الفرد في عملياته المتعلقة ببناء تمثلات عن صراعاته النفسية الداخلية. إن المجتمعات الحديثة تعاني على مستوى مصادر الخرافات هذا الوضع أدى إلى تعريض الأفراد إلى اضطرابات نفسية لم تكن معروفة في المجتمعات التقليدية. اضطرابات مست بشكل خاص عمل النسق قبل-الشعوري. إن تثبيط عمل النسق قبل-الشعوري يؤدي إلى عدم توفر التكوينات اللغوية و الصورية التي يحتاجها الجهاز النفسي في عملية تحويل التمثلات اللاشعورية و الانفعالات المتعلقة بها إلى تمثلات-كلمات représentations de mots يستطيع الفرد التلفظ بها.

هناك آلية مهمة جدا يمتلكها المجتمع للحفاظ على العقد النرجسي وهي الأسطورة Le mythe ، هذه الأخيرة تخضع لدعم النظام الاجتماعي الذي يعمل على الحفاظ عليه وضمان استمراريته عبر الأجيال. في الحالات العادية للمجتمعات ، تتمكن هذه الأخيرة من تجاوز الأزمات على مستوى العقد النرجسي، ماذا عن المجتمع الجزائري الذي يتخبط في صراعات زعزعت غشاءه الثقافي وهو يواجه ظاهرة التثاقف مع المجتمعات الأخرى ؟

إن ظاهرة التثاقف أول ما تفعله في المجتمعات ، كما قلنا سابقا ، هو إبطال قداسة الأسطورة التي تعد الركيزة الأساسية التي تبنى عليها ثقافة المجتمع ومنه هوية الأفراد. هذا الأبطال سيكون له عواقب مباشرة على العقد النرجسي حيث يصبح المجتمع بفعل التثاقف لا يملك آلية يحمي بها العقد النرجسي الذي

يربطه مع أفراد. يصبح الجسم الاجتماعي لا يستطيع استثمار أفراد في أدوار تصنع مكان الفرد ووظيفته ومنه يصبح لا يستطيع الحفاظ على استمرار يته التي تصنعها هوية الأفراد داخل أماكنهم.

إن الأنساق الجماعية - التي تمارس دور الحفاظ على أمن واستمرارية الفرد وتعمل على احتوائه - لما تدخل في حالة أزمة وتلاشي (كما هو الحال بالنسبة للمجتمع الجزائري) يؤدي ذلك مباشرة إلى تلاشي الأسس التي تتركز عليها هوية كل فرد. أي أن أزمة المؤسسات التي تحمل هويتنا تعد بمثابة تهديد بالزوال والاندثار لهته الهوية. من جهة أخرى، إن المؤسسات وجماعات الانتماء وجماعات المرجعية تلعب دورا مهما في احتواء أزمات الفرد ليتمكن من تجاوزها. ماذا يحدث لهذا الفرد في حالة الأزمة لما تصبح هذه المؤسسات والجماعات في حد ذاتها في حالة أزمة ؟

بمعنى آخر، نريد القول أن الفرد الجزائري يعيش حالة أزمة ولدتها أزمة المؤسسات والجماعات التي تحوي الفرد. لتجاوز هذه الأزمة يجب حسب روني كايس René Kaes تداول مستويات ثلاث، داخلي-نفسية، جماعية، اجتماعية. لكن كما قلنا المستوى الجماعي يعاني حالة أزمة تشبه أزمة المجتمع .

فكيف للفرد الجزائري تجاوز أزمته و مشاركته في عملية التنمية ؟

إن محاولة تجاوز الأزمة لا يتم إلا بالاعتماد على التفكير. التفكير في الأزمة يعني محاولة عقلنة انفصال Mentalisation d'une rupture .

لكن ما معنى الأزمة ؟

إن الفكرة التي نجدها تدور حول هذه المسألة هي عموما أن الأزمة هي تغير مفاجئ ومصيري في المسار الطبيعي للعمليات. لكن نفضل بشكل خاص التعريف الذي قدمه ر.توم¹² (1976) R.Thom الذي يعرفها على أنها اضطراب مؤقت على مستوى ميكانيزمات التنظيم لدى الفرد أو جماعة من الأفراد. هذا الاضطراب يولد قلق شديد لدى الفرد كإشارة على وجود خطر يهدد تكامله، استمراريته، هويته ووجوده.

حسب ر.توم¹³ R.Thom وإيريكسون E.H.Erikson هناك سببين رئيسيين للأزمة :

أسباب خارجية : تظهر على شكل تواجد صراع داخل المحيط : غياب موضوع عادي أو تواجد عدة مواضيع بالشكل الذي يجعل الاختيار يولد أحاسيس متناقضة - على سبيل المثال : فقدان شخص عزيز هي حالة تولد أزمة.

أسباب داخلية : يسميها إيريكسون، أسباب ناجمة عن أزمات النمو، وهي تظهر خلال نمو الفرد وتطوره مثل أزمة الولادة، أزمة الشهر الثامن عند الرضيع، أزمة المراهقة، أزمة الوسط الاجتماعي، أزمة الدخول في مرحلة الشيخوخة.

إن الأزمة يمكن اعتبارها انقطاع أو انفصال على مستوى العلاقة ما بين - ذاتية Intersubjective في لعبة الانتماءات إلى جماعات ومجتمعات. في هذا الفضاء ، بين فقدان مؤكد واكتساب غير مؤكد، أين الزمن يفقد حركته ،ماذا يحدث للفرد ؟ الشيء المؤكد هو أنه سيصيبه قلق شديد فالقضية أصبحت قضية موت أو حياة.

بالنسبة للفرد الجزائري - فإنه يجد نفسه يعيش تجربة انفصال مع النظام الثقافي التقليدي (إنفصال جزئي) تجله يسبح في فضاء توقف فيه الزمن، توقف فيه التفكير في نفس الوقت، هو مطالب بإنشاء روابط جديدة مع نظام جديد لم يتم بعد تحديد معالمه، لأنه هو في حد ذاته في أزمة.

يقول في هذا الصدد ج.بليقي¹⁴ J.Bleger أن ما وضعناه في الإطار والذي يشكل تهديد للأنا، يعود إلينا ويسبب لنا قلق شديد (في حالات الانقطاع) قلق الانهيار والزوال. لهذا السبب كانت الأزمة دائما تجربة يصاحبها قلق شديد عند الفرد قلق يثبط تفكيره وقدراته العقلية ويجعله غير قادر على إيجاد مخرج وتجاوز أزمته.

• لكن ما معنى الإطار وما وظيفته؟

إن الإطار يعتبر تواجد دائم والذي بدونه لا يستطيع الأنا أن يتطور ويتشكل. ليس لدينا أي شعور بوجوده ما دام مستقرا. لكن عندما يحدث اضطراب على مستواه نحس به. لذلك فإن كل أزمة يمر بها الفرد تظهر وجود الإطار وبذلك تهدد استقرار الأنا وتولد قلق شديد.

يحتوي الإطار على الجزء البدائي في شخصية الفرد الجزء التلاحمي Fusionnel بين الأنا - الجسم - العالم. الجزء الذي لم يتم انفصاله من العلاقة البدائية مع الأم والذي يسمى الجزء الذهاني Psychotique في شخصية الفرد¹⁵ ولما كان هذا الجزء يهدد الأنا، إن وجد معه، كان لزاما على كل فرد إسقاطه في الإطار. هذا الإطار قد يكون: جماعة الانتماء ، الأسرة، المجتمع، كل المؤسسات التي يمر عليها الفرد. في حالة اضطراب الإطار وفقد استقراره فإنه يفقد خاصيته الحاوية للجزء الذهاني Psychotique ومنه يصبح الأنا إطار ويعود ذلك الجزء الذهاني إليه من جديد في انتظار إسقاطه في إطار جديد.

إن الانشاقات التي تحدث على مستوى الإطار هي مناسبات لفتح المجال لدخول حقيقة تظهر لدى الفرد على أنها كارثية. هذه الحقيقة كما قلنا هو الجزء الذهاني في شخصيته الذي لم يعد يجد ما يحويه. هذه

الحقيقة التي رجعت إليه، تهاجم أمرا مهما جدا في نفسيته وهو الإحساس بالقوة المطلقة La toute puissance. أي تغيير يحدث على مستوى الإطار، يحدث أزمة لدى الفرد أزمة تدفعه إلى الجوء إلى ميكانيزمات دفاعية مثل الإسقاط للتخلص من الجزء الذهاني من شخصيته. لأن الفرد يحس باجتياح قلق كارثي. وقد يلجأ كذلك إلى ميكانيزم دفاعي لا يقل أهمية عن الأول وهو الانفلاق Clivage .

إن المؤسسات مثل الإطار تمثل عالم شبحي، التنظيم الأكثر بدائية والأقل إنفصالا، أي الجزء الثاني الذهاني في الفرد. كل مؤسسة هي جزء من شخصية الفرد. لذلك كانت الهوية دائما كليا أو جزئيا مؤسساتية ذلك لأن جزء من الهوية يتم بناءه عبر انتماء الفرد إلى جماعة، مؤسسة، إيديولوجيا... المؤسسات تؤدي وظيفة النواة القاعدية لهوية الفرد. هناك شبه كبير بين المؤسسة (الإطار) والأم، فكما أن الإتحاد الوثيق La symbiose مع الأم تمكن الطفل من تطوير وإنماء الانا من جهة وتمكن الطفل كذلك من إسقاط الجزء اللا-الأنف فيه في الحاوي (الأم) من جهة أخرى - المؤسسة كذلك تلعب نفس الدور : إنها الركيزة، السند، الوعاء الذي يحوي الجزء اللا-أنا في الفرد.

لعل هذه المعطيات كافية لفهم ما يحدث على مستوى النفسي الداخلي للأب الجزائري وهو يتعامل مع إطار (المجتمع، المؤسسات) يعيش حالة من التغيرات والتحولات والاضطرابات. سيجتاحه قلق شديد لأن الأنف أصبح مهددا، لأن هويته أصبحت مهددة.

الخاتمة:

إن مسألة التنمية ترتبط بشكل أساسي بالعنصر البشري قبل التحدث عن الوسائل و الإمكانيات و الإنسان لا يستطيع التفكير في التنمية دون تحقيق الاستقرار النفسي و الاجتماعي و هذه النقطة التي حاولنا توضيحها في هذه المداخلة. كما أنه لا يمكن الوصول إلى الاستقرار النفسي في ظل مجتمع يعاني من اضطرابات على مستوى نسقه الثقافي فأزمة الهوية ، أكبر معوقات التنمية، سببها أزمة النسق الثقافي فلا يمكن التحدث عن أي مشروع تنموي إلا بعد معالجة المرض الثقافي للمجتمع و ذلك بخلق نسق سوسيو ثقافي خال من التناقضات يعرض نماذج موحدة و متناسقة من أجل أن يحس الفرد بالوحدة و التناسق الداخلي فنخلصه بذلك من الشعور بالقلق و الغرابة و التوتر المستمر و نجعل منه إنسان تنموي يفكر في الهجوم و لا يضيع طاقته النفسية في الدفاع .

مراجع الدراسة:

¹ زهير لونيس، هوية الأب الجزائري بين النسق الثقافي التقليدي و النسق الثقافي الحديث، أطروحة دكتوراه دولة في علم النفس العيادي، جامعة وهران 2، 2015، ص252.

² Toualbi. N, L'ordre et le désordre, Casbah, Alger, 2006, p 23.

³ Lacheraf. M. L'Algérie, nation et société, Maspero, Paris, 1965, p65.

⁴ Bami. A, L'acculturation ; étude d'un concept, DESS, No121, pp 54 -63, Paris, 2000, p59.

⁵ نفس المرجع، ص62.

⁶ Berque. J, Le Maghreb entre les deux guerres, seuil, Paris, 1969, p 54.

⁷ Toualbi. N, Le sacré ambigu ou des avatars psychologiques du changement social, ENAL, Alger, 1984, p11.

⁸ Toualbi.N, Identité au Maghreb, L'errance, CASBAH, Alger, 2000, P152.

⁹ Toualbi.N, Religion، rites et mutations, Psychosociologie du sacré en Algérie, Enal, Alger, 1984a, p32.

¹⁰ Toualbi. N, Identité au Maghreb, Op cite, P258

¹ Kaès René, Ruptures, utopies, changements : in psychologie sociale du changement, sous la direction de Michel Cornaton, chronique social, Lyon, 1982, P96

¹² نفس المرجع، ص14.

¹³ نفس المرجع، ص15.

¹⁴ نفس المرجع، ص70.

¹⁵ نفس المرجع، ص267.